ابن المقفع

تأليف الأديب عبد اللطيف حمزة

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

الوجه فى إفراد شاعر أو كاتب من الماضين بالتأليف هو — كما يقول الرافعي رحمه الله — أن تصنع كأنك تعيده إلى الدنيا فى كتاب وكان إنسانا ، وترجمه درساً وكان عمراً ، وترده حكاية وكان عملا ، وتنقله بزمنه إلى زمنك ، وتعرضه بقومه على قومك حتى كأنه بعد أن خلقه الله خلقة إيجاد ، يخلقه العقل خلقة تفكير .

وهذا كتاب « ابن المقفع » قد وضعه الأديب عبد اللطيف حمزة ، وحاول فيه هذه المحاولة ، واجتهد فى إدراك تلك الغاية ، فأخذ كاتب العربية بالقول من جميع جهاته ، وتناوله من كل ناحية يمكن أو تصح أن تلابسه ، وكان أن جرى فى ذلك على مذهب الناقد الفرنسى المشهور « تين » الذى يرى أن الكاتب صنيعة لعوامل ثلاثة : « الجنس ، والبيئة ، والزمان » ولذلك فقد تكلم عن شعب ابن المقفع وعصره كلاماً مستفيضاً شاملا ، ثم تناوله من جهة شخصيته فتكلم عن حياته ولونه السياسي ومصرعه وأخلاقه ومكانته ونظرته إلى المثل الأعلى وزندقته وما قيل فيها ، ثم انتقل إلى الكلام عنه فى فنه وعبقريته ، وعرض له مصلحاً اجتماعياً وكاتباً له أسلوبه وطريقته ، واهتم بتحقيق آثاره وخص بعضها بالتحليل والدرس ، وأطال القول خاصة في كليلة ودمنة ، ثم ختم كتابه بالقول فى الأثر الأدبى لابن المقفع ، أثره فى الشعراء وأثره فى الكتاب ، وأثره فى القصة ، وأثره فى العقل الشرقى بوجه عام

فالأديب الفاضل قد توسع للموضوع حق التوسع ، ودخل عليه من كل ناحية يمكن أن تتصل بابن المقفع ، وهو فى كل ناحية للقول يعنى كثيراً بأن يستعرض آراء السابقين فى الرجل فيناقشها مناقشة حادة عنيفة ، ينتهى من ورائها إلى نقض ما يراه جديراً بالنقض ، وإلى تأييد ما يراه حقيقاً بالتأييد ، ثم يتقدم برأيه الشخصى محاولا أن يحتج له ما وسعته الحجة ، وأن يتلمس له ما يمكن أن يكون هناك من دليل ، ولست أزعم لك أني معه فى كل ما انتهى إليه من الرأى ، ولكنى — كما يقول الأستاذ أحمد أمين — قد أخالفه في بعض ما ذهب إليه من النتائج ، وقد أخالفه فى طريقة عرض بعض الفصول والأبواب ، وقد أخالفه فى تعميم الحكم أحياناً حين يحسن التخصيص[1] — بل إنى لأراه قد يفرض الرأى فى بعض الأحيان فرضاً ولو لم يقم عليه شبه دليل .

ومثال ذلك ما نقله عن أستاذه طه حسين (ص ٣١) من « أن صلة ما لا بد موجودة بين أشعار صالح بن عبد القدوس وأبى العتاهية ، وبين شاعر يوناني قديم هو آبيدوس عرف بفن من فنون الشعر اليونانى هو فن الشعر التعليمى ؛ ثم قال : « وعندى أن ليس هناك ما يمنع العباسيين من أن يتصلوا (كذا) بهذا الفن من فنون الشعر الذى لا يتعارض والدين ، ولكنى لا أعلم كيف تسنى لهم هذا الاتصال وليس فى المصادر العربية ما يدلنا على ترجمة لهذا الفن الشعرى ولا لغيره من الفنون الشعرية عند اليونانيين » .

والواقع أن الدكتور طه قد ألقى رأيه فرضاً من غير دليل ، وهو رجل يدرس الأدب بالفرض والتخمين ؛ ولا شك أن الأديب حمزة قد تورط إذ أخذ برأى أستاذه هذا وتابعه على مذهب « ليس ما يمنع[2] » وإنى لأعجب كيف يقول : إن صلة ما لا بد موجودة بين شاعرى العربية والشاعر اليونانى ، مع أنه « لا يعلم كيف

(١) مقدمة الكتاب للأستاذ أحمد أمين

(٢) كانت « ليس ما يمنع » هذه من أدلة الدكتور فى كتابه الشعر الجاهلى فتنادر عليه به الناقدون وكانت فى قلم الرافعى سخرية وتهكما

تسنى لهم هذا الاتصال وليس فى المصادر العربية ما يدلنا عليه »

هذا ولقد تورط حضرته مرة أخرى فى مطاوعة أستاذه ، إذ رأى (ص ٨٠) أن السبب الوحيد أو من الأسباب فى قتل ابن المقفع « رسالة كتبها توشك أن تكون برنامج ثورة موجهة إلى المنصور وهى رسالة الصحابة » قال : « وفى هذه الرسالة نجد تشريعاً جديداً من عمل الكاتب يقترحه على الخليفة ليعمل به فى أمور شتى كان أهمها أمر القضاء » والذي نراه أن رسالة الصحابة على ما ينطق به موضوعها ليست برنامج ثورة ، ولكنها فى الواقع برنامج إصلاح رفعه الكاتب إلى الخليفة ، لأن فيه توطيداً لملكه ، وتقوية لنفوذه ؛ وكأنى بالكاتب قد كتب هذه الرسالة يريد بها المثوبة عند الخليفة . والواقع أن الأديب حمزة قد أبعد كثيراً فى تلمس الأسباب التى أودت بحياة ابن المقفع وانتهت به إلى تلك النهاية الأليمة ؛ مع أن السبب ظاهر واضح ... وهل قتل الرجل غير «السياسة» قاتلها الله ؟! تلك التى طالما طاحت برقاب وهوت برؤوس ، كمثل ما صنعت بعبد الحميد الكاتب وبشار بن برد وغيرهم من الكتاب والشعراء

وثمة أحكام نخالف المؤلف فى الأخذ بها ، فأنا مثلاً لست معه فى تصحيح تلك الرواية التى نقلها عن إسلام ابن المقفع (ص ٥٦) ولا فى تلك التى أثبتها عن معارضته للقرآن ، كما إنى لست معه فى أن ابن المقفع « أوذى فى سبيل حرية الفكر » وأنه كان « عدواً للعرب يسخر منهم » وأنه كان « زنديقاً ملحداً » إلى غير ذلك من الأحكام التى يتلمسها المستشرقون للرجل بالحق والباطل . ولقد كان فى تقديرى أن أناقش الأديب حمزة الرأى لو لا أنى رأيت المجال محدوداً ، وأنى لست بصدد الكلام على ابن المقفع ، ولكنى بصدد القول فى « كتاب » ...

بقى القول فى أسلوب الكتاب وهي ناحية مهمة فى تقدير الأثر الأدبى وتعيين قيمته ؛ ولست متجنياً على الأديب الفاضل إذا تنقصت أسلوبه فى بعض نواحيه ، فهو ينهج نهج أستاذه الدكتور طه فى تكرير اللفظ ، ومرادفة الجمل ، والإكثار من الحشو والاعتراض ، ولكنه لا يحكم ذلك ولا يجوده ، وربما تهافت إلى حد لا يطيقه الذوق ، كأن يقول : « وهذا وهذا وهذا عدا الكتب الأخرى » وكأن يقول : « ويذهب به ما ذهب بنفوذ الاعراب وتقاليد الاعراب وعقول الاعراب » وأكثر من هذا فقد يهضم حق اللغة كأن يقول : « وقد كان القدماء يخشون من وضع الكتب ... ولعلنا نخشى كذلك من وضع الكتب » وكأن يقول : « ثمناً غالياً وغالياً بأكثر مما يتصور الناس » وكأن يقول : « ولعل كتاب الأدب الكبير يكون أصدق مثال لما نقول » و(كان) لا تنقاس زيادتها إلا بين ما وفعل التعجب ولا تكون إلا بلفظ الماضى . وما أريد أن أتقصى وإنما أريد أن أنبه الأديب الفاضل لعله يتلافى هذه الهنوات وأمثالها فى الطبعة القادمة إن شاء الله ، خصوصاً وهو ربيب قسم اللغة العربية فى كلية الآداب ؛ ثم هو يزعم أنه يتصوف تصوفاً علمياً وأدبياً فيمكف على العلم والأدب آصائل النهار ونواشىء الأسحار ، وما يليق « بمتصوف » الأدب أن يكون أسلوبه فى شىء من الهافت وضعف التأليف ؛ وما يليق به أن يفنى فى غيره ، وإنما الواجب أن يكون له طريقته ونهجه ، فان الفناء فى شخصية أخرى «فناء»

على أن الأديب حمزة والحمد لله ليس من المكابرين فى قيمة الأسلوب فهو يرى أن « من حق الأسلوب أن يجود وليس كاتب ولا عالم ولا مؤرخ إلا ويجب (؟) أن يصرف فى العناية أقصى ما يستطاع » ولكنه يعتذر عن نفسه بأن « الوقت لم يتسع للتجويد فى الأسلوب » وأنا لا أدرى ما الذي ضيق عليه الوقت ، وما الذى حمله على إخراج كتابه قبل أن يستكمله تجويداً وتحريراً كأنه لم يعلم أن المرء ما يزال فى فسحة من عقله حتى يؤلف كتاباً ... وكأنه لم يعلم أن الناقد لا يقدر الأثر الأدبى إلا من حيث هو هو فى مادته ، وليس مما يعنيه مراعاة المسافة والزمن ، ولقد سألت صديقنا الأستاذ الزين الشاعر مرة فقلت له : أراك تتنطس فى حوك شعرك حتى لتقضى فى ذلك الوقت الطويل. فقال: نعم ! لأنى لا أريد أن أفوّت ثلمة يتقحم منها الناقد . وإن القارىء ليقرأ وهو مطمئن ، فليكتب الكاتب وهو أكثر اطمئناناً

أما بعد ، فأنا مقدر للأديب حمزة ما صرف من جهد فى البحث والاطلاع وإخراج هذا الأثر النافع ، ولعل كتابه — على ما أعرف — هو أوفى بحث خرج عن ابن المقفع للآن ، وإنى لأرجو له أبحاثاً أوفى وأتم ، وأشمل وأعم ، فتكون كالإمجاز بعد الارهاص ؟

محمد فهمى عبد اللطيف

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾